تفسير سورة «ق» وتسمى سورة الباسقات

الاستاذ العلامة الحاج احمد ابن شقرون
عضو المجلس العلمي بفاس

(قال الشيخ الامام محيى السنة ابو عبد الله الشهير بابن قيم الجوزية رحمه الله) :

اذا اردت الانتفاع بالقرآن فاجمع قلبك عند تلاوته وسماعه والق سمعك ، واحضر حضور من يخاطبه من تكلم به . فانه خطاب منه اليك على لسان رسوله — صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى :

ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو القى السمع وهو شهيد — اى شاهد القلب حاضر غير غائب وقال تعالى :

ان هو الا ذكر وقرآن مبين لتنذر من كان حيا — اى حيى القلب وفى تحليل ما اشتملت عليه هذه السورة العظيمة — قال :

قد جمعت هذه السورة من اصول الايمان ما يكفى ويشفى — ويغنى عن كلام اهل الكلام ومعقول اهل المعقول :

فانها تضمنت تقرير المبدأ والمعاد والتوحيد والنبوة والايمان بالملائكة وانقسام الناس الى هالك شقى وفائز سعيد — واوصاف هؤلاء وهؤلاء وتضمنت اثبات صفات الكمال لله وتنزيهه عما يضاد كماله من النقائص والعيوب — وذكر الله فيها القيامتين الصغرى والكبرى والعالمين : الاكبر وهو عالم الآخرة والاصغر وهو عالم الدنيا وذكر فيها خلق الانسان ووفاته واعادته وحاله عند وفاته ويوم ميعاده واحاطته سبحانه به من كل وجه حتى علمه بوساوس نفسه واقامة الحفظة عليه يحصون عليه كل لفظة يتكلم بها . وانه يوافيه يوم القيامة ومعه سائق يسوقه اليه وشاهد يشهد عليه — والسورة الكريمة تدل صراحة على ان الله سبحانه يعيد هذا الجسد بعينيه الذى اطاع وعصى فينعم المطيع ويعذب العاصى — كما تنعم الروح التى آمنت بعينيها — وتعذب التى كفرت بعينها .

فاذا احضر السائق مسوقه قال : « هذا مالدى عتيد » اى هذا الذى امرت باحضاره قد احضرته — فيقال عند احضاره :

القيا فى جهنم كل كفار عنيد —

وللشروع فى تفسير السورة الكريمة نقول :

هى سورة مكية الا آية 38 فمدنية — وبها كان يعظ النبى صلى الله عليه وسلم على المنبر — فقد روى عن أم هشام بنت حارثة انها قالت : « ما اخذت سورة « ق » والقرآن المجيد الامن فى رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه كان يقرأ بها فى كل جمعة على المنبر اذا خطب الناس » « ق » من حروف التنبيه على راى اغلب المفسرين .

قال الامام الرازى قد ذكرنا ان الحروف تنبيهات

قدمت على القرآن ليكون السامع بسببها مقبلا على استماع ما يرد على الاسماع فلا يفوته شيء من الكلام الرائق والمعنى الفائق .

اقسم الله تعالى بكتابه الجامع لصنوف المكارم والمحامد والمزايا الرادع عن كل خلق سيء والحاث على كل مبرة وفضيلة ولذلك وصفه بالمجد الذى هو السعة فى الكرم كما قال الراغب — ثم حكى الله تعالى حال الكفار المكذبين المتعجبين من مجيء شرشى منهم ينذرهم بالبعث والنشور ويخبرهم عن الله بذلك مما يتلى على مسامعهم من الآيات البينات فى هذه السورة عجبوا من بعث واحد منهم ينذرهم بما نزل عليه من الله وقالوا هذا امر عجاب لانقبله — وفى آية اخرى :

« ابشرا منا واحدا نتبعه »

وامعانا منهم فى التعجيب والاستنكار واستبعاد ما جاء به النذير قالوا اسيعاد تكويننا من جديد بعد ما نموت ونصبح عظاما نخرة مخلوطة بالتراب ؟ ذلك ما لم تقبله عقولهم الواهمة ولذلك قالوا ان ارجاعنا مثلما كنا عليه امر بعيد الوقوع فرد الله تعالى عليهم بقوله : قد علمنا ما تنقص الارض منهم اى مما تفتت من عظامهم وانهار من لحوم ابدانهم — وزيادة فى تأكيد معنى البعث واقرار وقوعه قال تعالى : وعندنا كتاب حفيظ اى سجل يحفظ جميع الاشياء دقت اوجلت كانت او صارت برزت على وجه الارض أو دفنت تحت الثرى — فالكل قد شمله عمله واحصاه كتابه — على ان الكتاب الحكيم قد سجل عليهم ما هو ادهى وأمر وهو التكذيب بالنبوة المؤيدة بالمعجزات الساطعة والبراهين القاطعة « بل كذبوا بالحق كما جاءهم فهم فى أمر مريج » اى مضطرب مختلط حيث لا تناهى مزاعمهم ولا تنقضى اباطيلهم ودعاويهم الكاذبة — قال تعالى فى جواب من قال :

من يحيى العظام وهى رميم ؟

قل يحييها الذى انشاها اول مرة وهو بكل خلق عليم .

وقال تعالى :

اوليس الذى خلق السموات والارض بقادر على ان يخلق مثلهم .

وقال تعالى

بلى قادرين على ان نسوى بنانه

وقال : ذلك بأن الله هو الحق وانه يحيى الموتى وانه على كل شيء قدير .

وهذا ما تضمنته الآيات الكريمات التالية :

بسم الله الرحمن الرحيم

« ق » والقرآن المجيد . بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب . اه ذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد . قد علمنا ما تنقص الارض منهم . وعندنا كتاب حفيظ . بل كذبوا بالحق لما جاءهم . فهم فى أمر مريج .

وفى تحليل قضية البعث يقول سيد قطب :

وقضية البعث قاعدة اساسية فى العقيدة الاسلامية قاعدة تقوم على العقيدة — ويقوم عليها التصور الكلى لمقتضيات هذه العقيدة — فالمسلم مطلوب منه ان يقوم على الحق ليدفع الباطل وان ينهض بالخير ليقضى على الشر .

وان يجعل نشاطه كله على الارض عبادة لله .

ولا بد من جزاء على هذا العمل — وهذا الجزاء لا يتم فى رحلة الارض فيؤجل للحساب الختامى بعد نهاية الرحلة كلها فلابد اذن من عالم آخر ولابد اذن من بعث للحساب فى العالم الآخر .

ثم ان الله تعالى تحداهم وقرعهم بالحجة المحسوسة المرئية فى السماء والكواكب والارض والجبال والنباتات وصنوف الثمار والاشجار خصوصا النخل الباسق فى عنان السماء — وفى الماء الذى ينزله على الارض الموات فتحيا باذن الله — كما يبعث الموتى للحساب بعدما صاروا عظاما نخرة — فقال

— الم يعتبر اولئك الجاحدون المنكرون للبعث بهذه السماء المرفوعة فوق رؤوسهم بلا عمد والتى ليس فيها شقوق ولا فتوق ولا فروج ولا صدوع وهى

فى الوقت نفسه مزينة بكواكب لماعة يهتدى بها المهتدون فى ظلمات البر والبحر .

الم يعتبر أولئك الجاحدون المنكرون للبعث بهذه الارض الممدودة لمصالح الناس والحيوان الزاخرة بأنواع الفواكه والثمار والاشجار اليانعة الدانية القطوف اكراما من الله لعباده —

— الم يعتبر اولئك الجاحدون المنكرون للبعث بهذه الجبال الثوابت الرواسى التى تمنع الارض عن الميد والاضطراب .

الواقع ان الذى يتذكر ويتبصر انما هو العبد الخائف من مولاه المنيب الى التفكر فى عظمته وباهر قدرته جل جلاله .

فهو يتأمل فى هذا الماء المبارك الذى ينزل من السماء غيثا نافعا للبلاد والعباد — فاذا بالحدائق التى كانت بالامس القريب مقشعرة خالية خاوية تحور الى حدائق غناء وجنات يانعة مخضرة مطلولة مكسوة بكل زوج بهيج .

واذا بالحقول التى كانت ترابا وحصى وصخورا الى مرابع للبر والشعير وغيرهما دانية الحصاد — وكذلك النخل الباسقات المرتفعات فى عنان السماء نضد الله طلعها واكثر ثمارها رزقا منه لعباده جل جلاله — بعدما عدد الله تعالى هذه الدلائل الباهرات الشاهدة بقدرته على بعث الحياة فى الموات قال : كذلك الخروج — على منهاج قياسى — اى اخراج الموتى من قبورهم اسهل من احياء الارض بالماء — ولذلك عبر فى جانب بعث البلد الميت بالاحياء — « واحيينا به بلدة ميتا » وعبر فى جانب بعث الناس من قبورهم بالخروج — فقال : كذلك الخروج — فكأنهم اعتبروا مجرد كائنين منتظرين الامر بالنشور والبعث وهذا ما تضمنته الآيات الكريمات التالية :

افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج . والارض مددناها والقينا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد — واحيينا به بلدة ميتا — كذلك الخروج .

وفى تفسير قول الله تعالى :

ومالها من فروج :

قال ابن جرير .

يعنى ومالها من صدوع وفتوق

كقوله تعالى :

« الذى خلق سبع سموات طباقا . ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت . فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين . ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » اى كليل عن ان يرى عيبا او نقصا .

وفى تفسير قوله تعالى « ونزلنا من السماء ماء » قال الخطيب الشربينى :

اى شيئا فشيئا وعلى سبيل التقاطر — ولولا عظمتنا التى لا تضاهى لغلب بما له من الثقل والميوع والنفوذ فنزل دفعة واحدة فأهلك ما نزل عليه فزالت المسرة وعادت المنفعة مضرة — وفى تفسير قول الله تعالى : كذلك الخروج » قال : اى مثل الاخراج العظيم الخروج من قبورهم على ما كانوا عليه فى الدنيا اذ لا فرق بين خروج النبات بعدما تهشم وتفتت فى الارض وصار ترابا كما كان من بين اصفره وابيضه واحمره وازرقه الى غير ذلك وبين اخراج ما تفتت من الموتى كما كانوا فى الدنيا .

وفى التلعيق على ذلك يقول الامام ابن القيم فى اسلوبه الرائع البديع كعادته —

ثم دعاهم الله الى النظر فى العالم العلوى وبنائه وارتفاعه واستوائه وحسن التئامه — ثم الى العالم السفلى وهو الارض وكيف بسطها وهياها بالبسط لما يراد منها وثبتها بالجبال واودع فيها المنافع وانبت فيها من كل صنف حسن من اصناف النبات على اختلاف اشكاله والوانه ومقاديره

ومنافعه وصفاته — وان ذلك تبصرة اذا تاملها العبد المنيب وتبصر بها تذكر مادلت عليه مما اخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد ...

ثم دعاهم الى التفكر فى مادة ارزاقهم واقواتهم وملابسهم ومراكبهم وجناتهم وهو الماء الذى انزله من السماء وبارك فيه حتى انبتت به جنات مختلفة الثمار والفواكه ما بين ابيض واسود . واحمر واصفر . وحلو وحامض ....

وانبتت به الحبوب كلها على تنوعها واختلاف منافعها وصفاتها واشكالها ومقاديرها . ثم افرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة على قدرته الباهرة .

ثم انتقل سبحانه الى العداد المكذبين الذين كذبوا رسلهم فيما جاءوا به فأحاط بهم البلاء واحذق بهم الشقاق وحقت عليهم كلمة العذاب وفى ذلك ذكرى وموعظة وتنبيه وتحذير — وفيه وعد من الله لرسوله بنصره على اعدائه كما نصر رسله السابقين على اعدائهم ومناوئيهم بقوم نوح عليه السلام وقوم شعيب عليه السلام وهم اصحاب الرس اى البئر التى لم تطو بعد وقوم تبع الحميرى وغيرهم من ثمود وعاد وفرعون واخوان لوط واصحاب الايكة — وهى الغوطة ذات الاشجار الملتفة هؤلاء جميعا اهلكهم الله بأنواع مختلفة من العذاب لانهم كذبوا رسله اليهم — وفى ذلك تهديد لكفار قريش يوذن بحلول العذاب بهم كما حل بمن كان مثلهم — وفى تاكيد صحة البعث والنشور قال تعالى :

« افعينا بالخلق الاول — بل هم فى لبس من خلق جديد ؟

قال ابن عباس افعجزنا —

فيكون المعنى ان ابتداء خلق الخلق من العدم لم يتعاظمنا ولم يعجزنا فكيف يكون ذلك بالنسبة لاعادته بل ذلك اسهل قال تعالى :

« وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو اهون عليه »

انما الكفار المكذبون بالبعث يعمهون فى غمرة عارمة الالتباسات والشكوك والاوهام .

وهذا ما تضمنته الآيات الكريمات التالية :

« كذبت قبلهم قوم نوح واصحاب الرس وثمود . وعاد وفرعون واخوان لوط . واصحاب الايكة وقوم تبع . كل كذب الرسل فحق وعيد . افعينا بالخلق الاول . بل هم فى لبس من خلق جديد » .

فقوم نوح التقى عليهم الما آن نزل عليهم ماء السماء وطلع عليهم ماء الارض فغرقوا .

واصحاب الرس كانوا مقيمين عليها بمواشيهم يعبدون الاصنام فخسفت تلك البئر مع ما حولها وبكل ما لهم .

وثمود وهم قوم صالح عليه السلام اخذتهم الرجفة وهى مبدا الخسف لما جادلوا صالحا وقتلوا الناقة .

وعاد وهم قوم هود عليه السلام — اهلكهم الله بالريح .

وفى التعليق على ذلك يقول الامام ابن القيم :

ومن الثابت انه تقرير النبوة كان احسن تقرير واوجز لفظ وابعده عن كل شبهة فاخبر الله عز وجل انه ارسل الى قوم نوح وعاد وثمود ولوط وفرعون رسلا فكذبوهم فاهلكهم بأنواع الهلاك . وصدق فيهم وعيده الذى اوعدتهم به رسله ان لم يومنوا .

ونمضى فى تفسير السورة الكريمة فنقول :

ان الله تعالى هو الذى خلق الانسان واخرجه من الوجود من نطفة امشاج فهو سبحانه مطلع عليه وعلى ماهيته كلها ويعلم ظاهره وباطنه وجميع خفاياه حتى وسوسة نفسه وحبل وريده المستكن فى اعماق لحم عنقه النازل من راسه والمفضى الى قلبه — ولاقامة الحجة عليه كلف به ملكين حفيظين يحصيان عليه جميع اقواله وافعاله وحركاته وسكناته والا فهو عالم به لشدة قربه منه « وهو معكم اين ما كنتم »

فهـذا حفيظ قاعد عـن اليمين يترصد الحسنـات ويحّصيها ـ وهذا حفيظ قاعد عن الشمال يترصد السيئات ويحصيها ـ قال الحسن البصـرى بعدما تلا هذه الآية :

« عن اليمين وعن الشمال قعيد »

يا ابن آدم بسطت لك صحيفة ـ ووكل بـك ملكان كريمان ـ احدهما عن يمينك . والآخر عـن شمالك . فاما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك واما الذى عن يسارك فيحفظ سيئاتك . فاعمل ما شئت ـ اقلل او اكثر . حتى اذا مت طويت صحيفتك وجعلت فى عنقك معك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة فعند ذلك يقول تعالى :

« وكل انسان الزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا ـ اقرأ كتابك كفـى بنفسك اليوم عليك حسيبا » ثم قال : عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك .

روى ابو اسامة ان رسول الله صلى اللـه عليه وسلم قال :

« كاتب الحسنات امين على كاتب السيئات فاذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرا ـ واذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحـب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر »

ثم ان الله تعالى حذر مستبعد البعث والنشور من مغبة استبعاده لذلك فقال : وجاءت سكرة الموت بالحق ـ ذلك ما كنت منه تحيد ـ اى تنكص وتفرفها انت الآن امامه لا تستطيع عنه فكاكا . وفى الصحيح

« ان رسول الله صلى الله عليه وسلـم لما تغشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول :

« سبحان الله ـ ان للموت لسكرات »

فاذا نفخ فى الصور اى بوق الانذار وقامـت القيامة وحل زمن الايعاد ومثل كل واحد امام مولاه جل جلاله وقد اخذ به سائق يسوقه وشهيد يشهـد عليه واتضحت الحقائق وزالت الغشاوة عن الابصار فحينئذ تستيقظ الهمم وتنزاح اغطية الغفـلات وفى ذلك يقول الله تعالى :

ولقد خلقنا الانسان . ونعلم ما توسوس بـه نفسه . ونحن اقرب اليه من حبل الوريد . اذ يتلقى المتلقيان . عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد . وجاءت سكرة المـوت بالحق . ذلك ما كنت منه تحيد . ونفخ فى الصور . ذلك يوم الوعيد . وجـاءت كل نفس معها سائـق وشهيد . لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنـا عنك غطاءك . فبصرك اليوم حديد .

وفى قول الله تعالى : اذ يتلقى المتلقيان عـن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد »

قال القاشانـى

المتلقى هو القاعد عن اليمين وهو القـوى العاقلة المنتقشة بصور الاعمال الخيريـة المرتسمة بالاقوال الحسنة الصائبة ـ وانما قعد عن يمينه لان اليمين هى الجهة القوية الشريفة المباركة وهى جهة النفس التى تلى الحق ـ والمتلقى القاعد عن الشمال هو القوة المتخيلة التى تنتقش بصور الاعمال البشرية البهيمية والسبعية الآراء الشيطانية الوهمية والاقوال الخبيثة الفاسدة وانما قعد عن الشمال لان الشمال هى الجهة الضعيفة الخسيسة المشؤومـة وهى التى تلى البدن ـ ولان الفطرة الانسانية خيرت بالذات لكونها من عالم الانوار مقتضية بذاتها وغريزتها الخيرات والشرور انما هى امور عرضت لها من جهة البدن وآلاته وهيآته .

يستولى صاحب اليمين على صاحب الشمـال فكلما صدرت منه حسنة كتبها له فى الحال وان صدرت منه سيئة منع صاحب الشمال من كتابتهـا فى الحال انتظارا للتسبيـح اى التنزيه عـن الفواشى البدنية والهيئات الطبيعية بالرجوع الى مقره الاصلى وسينخه الحقيقى لينمحى اثر ذلك الامر العارضى بالنور الاصلى والاستغفار اى التنور بالانوار الروحية والتوجه الى الحضرة الالهية لينمحى اثر ذلك الظلمة العرضية بالنور

الوارد هـ . وفى تفسير قوله تعالى : « ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد » نقول :

قال الامام احمد : حدثنا ابو معاوية حدثنا محمد بن عمرو — وابن علقمة الليثى عن ابيه عن جده علقمة عن بلال بن الحارث المزنى — رضى الله عنه — قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن ان تبلغ ما بلغت يكتب الله عز وجل له بها رضوانه الى يوم يلقاه — وان الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن ان تبلغ ما بلغت يكتب الله تعالى عليه بها سخطه الى يوم يلقاه — قال الترمذى انه حسن صحيح —

فكان علقمة يقول كم من كلام قد منعنيه حديث بلال بن الحارث .

وفى التعليق على ذلك يقول الامام ابن القيم :

ثم نبههم الله على ما هو من اعظم آيات قدرته وشواهد ربوبيته وادلة المعاد وهو خلق الانسان — فانه من اعظم الادلة على التوحيد والمعاد —

واى دليل اوضح من تركيب هذه الصورة الآدمية باعضائها وقواها وصفاتها وما فيها من اللحم والعظم والعروق والاعصاب والرباطات — والمنافذ والآلات — والعلوم والارادات والصناعات كل ذلك من نطفة ماء — فلو انصف العبد لاكتفى بفكرة نفسه — واستدل بوجوده على جميع ما اخبرت به الرسل عن الله واسمائه وصفاته — ثم اخبر سبحانه عن احاطة علمه به . حتى علم وساوس نفسه .

ثم اخبر عن قربه اليه بالعلم والاحاطة وان ذلك ادنى اليه من العرق الذى هو فى داخل بدنه فهو اقرب اليه بالقدرة عليه والعلم به من ذلك العرق .

ثم اخبر سبحانه انه وظف على يمينه وشماله ملكين يكتبان اعماله واقواله — ونبه باحصاء الاقوال وكتابتها على كتابة الاعمال التى هى اقل وقوعا واعظم اثرا من الاقوال وهى غايات الاقوال ونهايتها . ثم اخبر عن القيامة الصغرى وهى سكرة الموت وانها تجىء بالحق — وهو لقائه سبحانه والقدوم عليه — وعرض الروح عليه والثواب والعقاب الذى تعجل لها قبل القيامة الكبرى .

ثم ذكر القيامة الكبرى بقوله :

« ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد »

ثم اخبر عن احوال الخلق فى هذا اليوم — وان كل احد ياتى الله سبحانه ذلك اليوم ومعه سائق يسوقه — وشهيد يشهد عليه — وهذا غير شهادة جوارحه وغير شهادة الارض التى كان عليها له او عليه وغير شهادة رسوله والمومنين . فان الله سبحانه يستشهد على العباد الحفظة والانبياء والامكنة التى التى عملوا عليها الخير والشر والجلود التى عصوه بها ..... فحقيق بالانسان الايكون فى غفلة من هذا الشأن . لان غطاء الغفلة والذهول يكشف عنه ذلك اليوم كما يكشف غطاء النوم عن القلب فيستيقظ — وعن العين فتنفتح

وفى تفسير قول الله تعالى :

« ونفخ فى الصور »

قال الخطيب الشربينى

يقال انه الذى ينفخ فيه اسرافيل عليه السلام — للموت العام والبعث العام ولا يعلم قدر عظمته واتساعه الا الله تعالى . اما اسرافيل عليه السلام فقد التقم الصور من حين بعث النبى صلى الله عليه وسلم وحنى جبهته واصغى سمعه ينتظر متى يومر —

فيالها من عظمة ما اغفلنا عنها — وما انسانا لها —

— وفى قوله تعالى — :

وجاءت كل نفس معها سائق —

السائق لازم للبر والفاجر .

اما البر فيساق الى الجنة قال تعالى :

وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا

واما الفاجر — فيساق الى النار قال تعالى وسيق الذين كفروا الى جهنم زمرا

ثم قال تعالى .

وقال قرينه هذا مالدى عتيد — القيا فى جهنم كل كفار عنيد — مناع للخير معتد مريب — الذى جعل مع الله الها آخر — فالله تعالى يقول للسائق وللشهيد القيا فى جهنم كل كافر شأنه جحود الحق والتلبس بالباطل والابتعاد عما فرض الله عليه من الحقوق والواجبات والتطاول على الناس وايذاؤهم بيده ولسانه بل يتجاوز ذلك الى التطاول على وحدانية الله جل جلاله ولذلك يكون الجزاء من جنس العمل فيكرر الله تعالى الالقاء فى النار المتأججه المعدة لتعذيب الكفرة الفجرة قائلا :

« فألقياه فى العذاب الشديد »

وهنا يعتذر الكافر بأن قرينه الشيطانى هو الذى اوقعه فى هذه الورطة — فيقول الشيطان مدافعا عن نفسه — ربنا ما اطغيته ولكنه كان مجبولا على الشر فصدر عنه صدورا جبليا — حتى ضل ضلالا بعيدا وعاث فسادا فى الارض منحرفا عن جادة الحق والصواب — وتلك عادة الشياطين ففى القرآن العظيم — « وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى . فلا تلومونى ولوموا انفسكم وبما ان الوقت ليس وقت حوار وانما هو وقت جزاء على ما كان فى هذه الدنيا من الاعمال ان خيرا فخيرا وان شرا فشرا .

يقول الله تعالى : لاتختصموا لدى —

لان الرسل قد بلغوا للثقلين عن الله ما كلفوا بتبليغه فقامت الحجج الدامغة على من عصاهم وعارض ما جاءوا به من الهدى فحقت عليه كلمة الله التى لا تبديل فيها ولا تغيير — والله يجازى كل احد بما قدمت يداه — وما ربك بظلام للعبيد — ويومئذ تقول جهنم — على كثرة افواج الكفار المطروحة فيها — :

هل من مزيد .

وفى هذه المعانى يقول الله تعالى :

وقال قرينه : هذا ما لدى عتيد . القيا فى جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير — معتد مريب الذى جعل مع الله الها آخر — فالقياه فى العذاب الشديد . قال قرينه : ربنا ما اطغيته — ولكن كان فى ضلال بعيد . قال : لا تختصموا لدى — وقد قدمت اليكم بالوعيد — ما يبدل القول لدى وما انا بظلام للعبيد . يوم يقول لجهنم : هل امتلأت ؟ وتقول هل من مزيد . ؟

وفى التعليق على ذلك يقول الامام ابن القيم :

اخبر سبحانه ان قرينه — وهو الذى قرن به فى الدنيا من الملائكة يكتب عمله وقوله ، يقول لما يحضره : هذا الذى كنت وكلتنى به فى الدنيا قد احضرته واتيتك به — فحينئذ يقال :

« القيا فى جهنم » خطابا للسائق والشهيد —

ثم ذكر تعالى صفات هذا الملقى فذكر له ست صفات :

1) **احدها** : انه كفار لنعم الله وحقوقه — كفار بدينه وتوحيده — واسمائه وصفاته — كفار برسله وملائكته — كفار بكتبه ولقائه

2) **ثانيها** : انه معاند للخلق يدفعه جحدا وعنادا

3) **ثالثها** : انه مناع للخير وهذا يعم منعه للخير الذى هو الاحسان الى نفسه من الطاعات والقرب الى الله — وللخير الذى هو الاحسان الى الناس . فليس فيه خير لنفسه ولالبنى جنسه كما هو حال اكثر الخلق —

4) **رابعها** : انه مع منعه للخير معتد على الناس ظلوم غشوم معتد عليهم بيده ولسانه .

5) **خامسها** : انه مريب اى صاحب ريبة

6) **سادسها** : انه مع ذلك كان مشركا بالله قد اتخذ مع الله الها آخر يعبده ويحبه ويغضب له ويرضى له ويحلف باسمه وينذر له ويوالى فيه

ويعادى فيه فيختصم هو وقرينه من الشياطين ويحيل الامر عليه وانه هو الذى أطغاه واضله فيقول قرينه: لم يكن لى قوة ان اضله واطغيه ولكن كان فى ضلال بعيد ــ اختاره لنفسه وآثره على الحق كما قال ابليس لاهل النار :

« وما كان لى عليكم من سلطان الا ان دعوتكم فاستجبتم لى »

وعلى هذا فالقرين هنا هو شيطانه يختصم معه عند الله .... فيقول الرب تعالى :

« لا تختصموا لدى » وقد اخبر سبحانه عن اختصام الكفار والشياطين بين يديه :

فى سورة الصافات والاعراف .

واخبر عن اختصام الناس بين يديه :

فى سورة الزمر .

واخبر عن اختصام اهل النار فيها

فى سورة الشعراء وسورة ــ ص . ا هـ .

ثم ذكر الله تعالى حال المتقين المنيبين اليه والواعين عند حدود الشريعة الاسلامية ــ وما اعد الله لهم من النعيم الدائم فى الجنة مما لا عين رات ولا اذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ــ فقال : وازلفت الجنة للمتقين غير بعيد . فهم فى مكان يرون فيه ما اعد لهم فى الجنة القريبة منهم من الخيرات جزاء وفاقا للحسنات والاعمال الصالحات التى قام بها كل من تاب واناب الى الله جل جلاله وحفظ نفسه من الوقوع فى الآثام والمعاصى والمخالفات وخاف الله فى السر والعلانية واخلص فى طاعته رجاء نيل مرضاته ــ فكان فى سلوكه مع مولاه اوابا محافظا ــ فهؤلاء المتقون الذين يخشون الرحمن بالغيب اى حينما يكونون غائبين عن اعين الناس ــ هؤلاء يوفون ما وعدتهم به الرسل من الخلود فى الجنة فيقال لهم يومئذ وهم على ابوابها : « ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود ــ لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد » اى اكراما لهم .

فهم سالمون من العقاب آمنون من العذاب مطمئنون الى النعم الدائمة التى لا يتقلص ظلها ولا تزول ابدا ــ وهم احياء فى الجنة خالدون فيها ــ لا ينالهم ابدا تعب ولا نصب ولا موت ــ ولهم من ربهم مزيد من الخيرات والامدادات والنعيم .

« ورضوان من الله اكبر » فاذا سألوا ربهم شيئا نالوه ونالوا فوق ذلك ما لم يخطر لهم على بال

ــ لانهم محسنون وللمحسنين الحسنى وزيادة قال تعالى :

« للذين احسنوا الحسنى وزيادة »

وفى ذلك يقول الله تعالى :

« وازلفت الجنة لمتقين غير بعيد . هذا ما توعدون لكل اواب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب . وجاء بقلب منيب . ادخلوها بسلام . ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها . ولدينا مزيد .

وفى التعليق على ذلك يقول الامام ابن القيم :

اخبر سبحانه عن تقريب الجنة من المتقين وان اهلها هم الذين اتصفوا بهذه الصفات الاربع :

احداها : ان يكون اوابا اى رجاعا الى الله من معصيته الى طاعته ومن الغفلة عنه الى ذكره ...

الثانية : ان يكون حفيظا . قال ابن عباس : اى لما ائتمنه عليه وافترضه .

ولما كانت النفس لها قوتان : قوة الطلب وقوة الامساك . كان الاواب مستعملا لقوة الطلب فى رجوعه الى الله ومرضاته وطاعته . والحفيظ مستعملا لقوة الحفظ فى الامساك عن معاصيه ونواهيه ــ فالحفيظ الممسك نفسه عما حرم عليه . والاواب : المقبل على الله بطاعته .

الثالثة : قوله تعالى : « من خشى الرحمن بالغيب » يتضمن الاقرار بوجوده وربوبيته وقدرته وعلمه واطلاعه على تفاصيل احوال العبد . ويتضمن

الاقرار بكتبه ورسله وامره ونهيه ويتضمن الاقرار بوعده ووعيده ولقائه — فلا تصح خشية الرحمن بالغيب الا بعد هذا كله .

الرابعة : قوله تعالى : « وجاء بقلب منيب » قال ابن عباس : اى راجع عن معاصى الله مقبل على طاعته .

وحقيقة الانابة عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والاقبال عليه .

ثم ذكر سبحانه جزاء من قامت به هذه الاوصاف بقوله :

« ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد » .

ثم ذكر سبحانه الجيل من الناس الذين اهلكهم من قبل على رغم ما كانوا عليه من قوة وبطش وتنقيب فى البلاد ابتغاء الرزق ولكنهم حينما ادركهم الموت لم يجدوا محيصا ولا مهربا منه وفى ذلك عظة وعبرة لمن أوتى قلبا . ولبا يعى علما الواعظ والعبر ويتدبر بهما ما يتلى على سمعه الحاضر المصغى لكتاب الله الذى انزله على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم جامعا لخير الدنيا والآخرة — وتأكيدا لامر البعث اعاد سبحانه دليلا آخر على ذلك فقال : انه قد خلق السموات والارض وما بينهما فى ستة ايام دون ان يلحقه تعب ولا اعياء ولا لغوب — وفى ذلك رد على اليهود لعنهم الله حيث قالوا : ان الله خلق السموات والارض فى ستة ايام اولها الاحد وآخرها الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش .

ولذلك امر الله تعالى رسوله العظيم بالصبر على ما يقول اولئك المكذبون آمرا اياه بالتسبيح والتحميد وتنزيه الله جل جلاله عن كل ما لا يليق بعظمته — وداعيا اياه ان يلازم ذلك فى صلاة الصبح قبل طلوع الشمس وفى صلاتى الظهر والعصر قبل غروبها وفى المغرب والعشاء — صلاتى الليل وعقب الصلوات المكتوبات كلها — اما يوم المنادى — واما يوم سماع الصيحة بالحق والنفخة الثانية فى الصور واما يوم الخروج من المقابر للحساب والجزاء فكأن قد — حيث يأمر الله تعالى الارض فتتشقق يخرج منها الناس سراعا منتشرين كالجراد وهو حشر يسير على الله جل جلاله لانه — وحده — القادر على الاحياء والاماتة واليه المصير — يعلم ما يقوله المكذبون فما على الرسول الا البلاغ والتذكير بالقرآن بغية ان يهتدى به من يخاف وعيده .

ورد فى الآثار ان المنادى هو جبريل عليه السلام حيث يقول : ايتها العظام البالية . والاوصال المتقطعة — واللحوم المتمزقة والشعور المتفرقة — ان الله يامركن ان تجتمعن لفصل القضاء .

قال الاستاذ المراغى :

ذكر الله تعالى فى هذه السورة — بارع الحكم ونفائس المعارف الآلهية جملة وتفصيلا —

— فمن ادب للامة مع نبيها

— الى ادب للامة بعضها مع بعض

الى حفظ للسلام بين الناس والصلح بينهم — وصيانة اللسان من الهزء والسخرية والهمز واللمز — ثم الى النظر فى ملكوت السموات والارض — وبذلك يحل التواصل محل التقاطع — ويتعلم الجهال ويجتمع الشمل — ويخيم الامن فى ربوع البلاد اهـ .

وفى خلق السموات والارض والقدرة على ذلك وعلى احياء الموتى يقول الله تعالى فى آية اخرى :

اولم يروا ان الله الذى خلق السموات والارض ولم يعى بخلقهن بقادر على ان يحيى الموتى . بلى انه على كل شىء قدير .

وفى حديث الامام مسلم تحديد التسبيح بثلاث وثلاثين — والتحميد بثلاث وثلاثين والتكبير بثلاث وثلاثين . واتمام المائة لا اله الا الله وحده لاشريك

له ــ له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير ــ دُبر كل صلاة

وفى ذلك يقول الله تعالى :

وكم اهلكنا قبلهم مــن قرن . هم اشــد منهم بطشا . فنقبوا فى البلاد . هل من محيص . ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب او القى السمع وهــو شهيد . ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما فى ستة ايام . وما مسنا من لغوب . فاصبر علــى ما يقولون . وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب . ومن الليل فسبحه وادبار السجود . واستمع يوم ينادى المنادى من مكان قريب . يــوم يسمعون الصيحة بالحق . ذلك يوم الخروج . انا نحن نحيى ونميت والينا المصير . يوم تشقق الارض عنهم سراعا . ذلك حشر علينا يسير . نحن اعلم بما يقولون . وما انت عليهم بجبار . فذكر بالقرآن من يخاف وعيد .

وفى التعليق على ذلك يقول الامام ابن القيم :

خوف الله المكذبين بأن يصيبهم من الهلاك ما اصاب من قبلهم ــ وانهم كانوا اشد منهم بطشا ــ ولم يدفع عنهم الهلاك بطشهم ــ وانهم عند الهلاك تقلبوا وطافوا فى البــلاد ــ وهل يجــدون محيصا ومنجى من عذاب الله .

مــن صحيــح الامــام البخــارى

روى سيدنا انــس رضى الله عنه فى كتاب العلم ــ فى باب من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه قول النبــى صلى الله عليه وسلــم .

كان صلى الله عليه وسلم اذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثا حتى تفهم عنه واذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم ثلاثــا .